إضاءة

أحمد مطر

شاعر المنفى واللحظة الحارقة

ولد الشاعر العراقي أحمد مطر في عام /١٩٥٠/، في قرية "التنومة"، إحدى نواحي شط العرب في البصرة، في أسرة مؤلفة من عشرة أولاد من البنين والبنات، وكان ترتيبه الرابع بين أخوته.

وقد وصف ذات مرة، قريته الوادعة الغافية بكسل تحت أشعة الشمس الحارقة بما لفظه:

"إنها قرية تنضح بساطة ورقة وطيبة وفقراً، مطرزة بالأنهار والجداول وبيوت الطين والقصب، والبساتين وأشجار النخيل الباسقة التي لا تكتفي بالإحاطة بالقرية، بل تقتحم بيوتها اقتحاماً جريئاً".

في هذه القرية المنسية على الخارطة العراقية، عاش أحمد مطر طفولته، ومن أجوائها الطبيعية المتسربلة بنداء الغاب الأزلي، وشهقات الطبيعة الصافية، التي لم تعبث بها الأيدي، بدأت رحلته على دروب القوافي، وكان في الرابعة عشرة من عمره، فكتب أشعاره الأولى، التي تتحدث عن مشاعر الحب، وهجران الحبيبة وصدودها، وليالي السهاد الطويلة. كما وتطرق في شعره الذاتي إلى أحلام الشبان وطموحاتهم المشروعة في هذه الحياة التي تتجاذبها الأفراح والأحزان، والانتصارات والانكسارات، وألوان السعادة والشقاء...

لكن بعد أن تجاوز أحمد مطر العقد الثاني من عمره، لمس بنفسه طبيعته وخفايا الصراع الدامي بين السلطة والشعب بأطيافه وانتماءاته الذي يمثل الأكثرية، وإن كانت هذه المواجهة، وهذا السلوك الصراعي بين الطرفين

يتقنعان بالصمت والكتمان، وحتى التقية السياسية، في ظل النظام العراقي السابق.

لم تطاوع نفس أحمد مطر الحرة الأبية، أن يكون صامتاً، صمت أهل الكهف، ولا على ارتداء ثياب العرس بالياقة النظيفة في موكب الجنازة الوطنية، فدخل حلبة المعترك السياسي الصاخب، من خلال مشاركته في الاحتفالات العامة والأمسيات الأدبية، بإلقاء قصائده المطوّلة الجريئة من على المنصة.

وكانت هذه القصائد الانتقادية الغاضبة، تتمحور حول الاعتداء على حرية المواطنين وكراماتهم، من قبل سلطة غاشمة تعد عليهم أنفاسهم التي تتردد في صدورهم، وتحاسبهم دون رحمة لأي وشاية تتناهى إلى سمعها...

ويقرر أحمد مطر الإفلات من جمهورية الخوف والرعب، التي هو أحد رعاياها السعداء، فينقذ رأسه المبدع من القطاف، ويتاح له التعبير في الوقت نفسه عما يجول في ذهنه من أفكار وآراء، فإنه يضطر إلى الرحيل عن وطنه العراق باتجاه دولة الكويت، حيث عمل محرراً ثقافياً في صحيفة "القبس"، فكانت هذه الصحيفة الرائجة، النافذة التي أطلّ بها على القرّاء، من خلال مقطوعات شعرية مكثفة، تشبه الطلقات الشعرية السريعة المتلاحقة. وفي هذا الصدد.. يقول الشاعر أحمد مطر في شهادة له عن جريدة "القبس" التي نشرت وتبنت أشعاره الجديدة التي أطلق عليها اسم (لافتات شعرية):

" إن صلتي بالقبس هي صلة الرحم، وعلاقتي بها مسألة يفرضها الولاء، فهي التي احتوتني عندما فتحت عيني، وهي التي حملتني على صدرها بشجاعة مريم، فيما كان الرهط كله يهتف من حولها حانقاً: لقد جئت شيئاً فرياً.. إنك تستطيع أن تغير قميصك، وتستطيع أن تغير بيتك، بل وتستطيع أن تغير وطنك، لكنك لا تستطيع أن تغير أمتك".

ومرة ثانية تكررت معاناة الشاعر في تشرده، حيث أن وخزاته الحادة الموجهة ضد الكثير من الأنظمة العربية، أوغرت صدور سلطات الرقابة عليه في

العديد من الدول العربية، مثله مثل رسام الكاريكاتير الفلسطيني ناجي العلي، الأمر الذي دفع بهما إلى مغادرة الكويت إلى العاصمة البريطانية لندن.

وهناك استشهد الفنان الكبير ناجي العلي، في أحد شوارع لندن اغتيالاً، في جريمة بشعة يوم التاسع والعشرين من آب عام /١٩٨٧/.

ومنذ عام /١٩٨٦/ استقر أحمد مطر في لندن، بعيداً عن وطنه الذي يحمله في قلبه أينما ذهب.

ومن هنا فإن أحمد مطر يحمل في أشعاره، قضية الإنسان العربي المقهور والمضطهد دون مبرر، سوى شهوة التسلط عند بعض الحكّام العرب، الذين يروق لهم التلاعب بمصير شعوبهم، واحتساء دماء الأحرار بشراهة لا مثيل لها.

وباختصار شديد.. أحمد مطر هو الشاعر الاستثنائي الذي يحمل همّ أمته العربية المكافحة، ويحمل وجع الإنسان العربي أينما كان على سطح هذه المعمورة.. فهو يحمل قضية أمته في كل ذرة من ذرات عقله، وهو وطن، يغفو على الأمجاد الغابرة، على هيئة إنسان.

ويرى أحمد مطر أن الشاعر ينبغي أن يدرك جيداً بأنه سلطة فوق كل سلطة، وأنه ضمير الأمة، والبوصلة الدقيقة الحساسة التي تشير إلى حقيقة الاتجاهات، ولا قانون يحكمه إلاّ ما يحكم حركة مؤشر البوصلة من قوانين، فإذا ما اختلف الشاعر مع السلطة فإنه دوماً على حق والسلطة على خطأ، لأن الشاعر يعبر عن ضمير الأمة الذي لا يمكن أن يتعادل مع السلطة التي تتبدل وتزول.

ومن سمات شعره.. هواجس اليأس والحزن الشديد القاتل التي تتبدى بوضوح في قصائده ولافتاته، والتي يبررها بالواقع العربي المتردي، الذي يبعث في النفس موجات من القلق والتخبط العشوائي في صحراء هذه الحياة القاحلة...

لذلك تناول في قصائده الواقع العربي، كما هو، دون تزويق أو تزييف، وصبّ جام غضبه ونقده الساخر لأية ظاهرة سلبية عربية، لأنه وإن كان يحيا في

منفاه الاختياري في لندن منذ عام /١٩٨٦/، إلاّ أنه يتفاعل مع قضايا أمته العربية، وينحاز بعفوية إلى جانب البسطاء والفقراء والمسحوقين، والشرفاء..

لقد قدّم الشاعر الكبير أحمد مطر فناً شعرياً، لا مثيل له في ديوان الشعر العربي الحديث، وأنتج إبداعاً خالصاً يقوم على المعنى لا على المبنى، المهم عنده إيصال الفكرة إلى أذهان القراء بكلمات قليلة، دون أن يكترث بقواعد البلاغة والمحسنات البديعية، وبحور الشعر الفراهيدية...

وفضلاً عن ذلك.. فإن الشاعر أحمد مطر، لا يحمّل الأنظمة السياسية وحدها حالة الضعف والتشرذم العربي المقيت، وانعدام الوزن في المحافل الدولية، بل يحمّل الشعوب الخانعة النائمة والأفراد المسؤولية الجسيمة ذاتها، والحمل الثقيل نفسه، وهو يعي تماماً أن الجميع شركاء لا أجراء بنسبٍ قد تكون متفاوتة.. مؤكداً بحسه المعرفي اليقظ، ومشاهداته البانورامية للوضع العربي المتأزم، أن الضعفاء والأذلاء وأشباه الرجال والهامشيين يصنعون الطغاة والأشرار.

وإذا كانت لنا من كلمة أخيرة، مع التنويه بأن الدراسات النقدية الجادة عن أحمد مطر، بالرغم من النجومية التي يتمتع بها لدى شريحة واسعة من القراء العرب، ما تزال ضئيلة ومحدودة العدد، لأسباب عديدة لسنا في صدد الحديث عنها الآن، وهي لا تخفى على القارئ الحصيف الذي سيقرأ شعره الناري في هذا الكتاب، فإن إبداعات أحمد مطر، غير المسبوقة، رشحته بقوة، ليكون واحداً من كبار روّاد مجددي القصيدة العربية الحديثة: (وما بعد الحداثة)، في نسيجها اللغوي المقتصد الجديد، وفي مضمونها التحريضي، كمنشور ثوري تتخاطفه الأيادي خلسة، لإحداث صدمة عنيفة في وجدان المتلقي، تدفعه بصورة ما، إلى التصدي المسؤول لحالات القمع، وحجز الحريات، ومصادرة الرأي الآخر، وكذلك الاستخفاف بالمشاعر الوطنية العارمة، وهذا ما دفعه إلى إطلاق السخرية والتهكم، في وجوه الأمراء الجدد سلالات الأسر الصحراوية، التي ينبغي أن تكون منقرضة من الحياة العامة، حماية للحضارة الإنسانية وللمستقبل العربي المأمول.

وفي الصفحات القادمة.. اخترنا اختياراً ذوقياً.. جديد وقديم شاعرنا الكبير أحمد مطر.. الذي يشهر أصابعه بالاتهام والإدانة كحالات مخجلة من صميم الحياة العربية..

وقد جاءت اتهاماته حادة وصارخة ومذهلة، نتيجة السكون المريب الذي يسبق العاصفة التي لا تبقي ولا تذر. وهذا ما عناه الشاعر الكبير بدوي الجبل: (محمد سليمان الأحمد) بقوله:

شُقِّي العَواصِفَ والظّلْماءَ جاريةً

باسْمِ الجزيرةِ مَجْرانا ومُرْسانَا

ضُمِّي الأعارِيبَ مِن بَدْو ومِنْ حَضَرٍ

إني لأَلْمحُ خَلْفَ الغيمِ طُوفانا

obeikandl.com